الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر 1830-1962

مقدمة:

سبق للفرنسيين و أن اهتموا بتاريخ الجزائر قبل 1830 معتمدين بالدرجة الأولى على تقارير القناصل المقيمين بالجزائر و مذكرات الرهبان و مكاتبات الجواسيس و تصريحات الأسرى و ما دونه الرحالة الأوروبيين الذين توافدوا على البلاد، و جاءت المادة التاريخية المتضمنة لتلك الأعمال غزيرة إلا أن أبحاث و دراسات الكتاب و المؤرخين الفرنسيين حول تاريخ الجزائر الحديث غلب عليها التحيز المفضوح و الكراهية للجزائر التي تطاولوا عليها بالشتم و وصفها بأوصاف عنصرية ، فالعاصمة ظلت تمثل لهم مدينة اللصوص و الصعاليك و جحيم النصارى و جمهورية قطاع الطرق و وصفوا حكام الجزائر بالمستبدين و الفاسدين أخلاقيا....كما اقتصرت كتاباتهم على مدينة الجزائر دون غيرها من مدن و مناطق البلاد، و ظلوا يؤكدون على أن الجزائر مصدر لكل الاخطار المهددة لمصالح الدول الأوروبية ، و لم يسلطوا الضوء كثيرا حتى على الحملات الفرنسية خاصة و الأوروبية عامة التي استهدفت الجزائر و الضربات الموجعة التي تلقتها ، و لم يذكروا حتى الأتاوات التي كان حكام و ملوك أوروبا يدفعونها لحكام الجزائر لكسب ودهم و تأمين سفنهم في الحوض الغربي من البحر المتوسط.

و كان الهدف من هذه الكتابات المزيفة هو إثارة سخط الأوروبيين على الجزائر و اشعال نار الحقد ضدها و من ثمة تهيئة الأجواء الدولية لغزوها عسكريا و التخلص منها لكونها شكلت عقبة كأداء في وجه أطماعهم الاستعمارية.

ازداد اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر بعد 1830م،فهل التزم هؤلاء بالموضوعية في كتاباتهم التاريخية بعد هذا التاريخ؟و ما هي خلفيات هذا الاهتمام؟

1-أصناف الكتابات التاريخية الفرنسية حول تاريخ الجزائر خلال فترة 1830-1962:

تم تصنيف كتابات المدرسة الاستعمارية الفرنسية المهتمة بتاريخ الجزائر خلال الفترة المذكورة أعلاه حسب معيار نوعية المواضيع و الباحثين إلى صنفين ،فالأولى

خاصة بـ:الكتابات الصادرة عن القادة العسكريين و الحكام المدنيين خلال الفترة-1830-1880-،و الثانية تتعلق بـ:كتابات الأكاديميين الفرنسيين الصادرة خلال الفترة-1880-1962.

1.1.كتابات القادة العسكريون و الحكام المدنيون-1830-1880:

تجلت الكتابات التاريخية المتعلقة بتاريخ الجزائر الصادرة خلال هذه الفترة عن القادة العسكريين و الحكام المدنيين الفرنسيين في المذكرات الشخصية و التقارير الرسمية و الروايات الشفوية دونها هؤلاء اعتمادا أيضا على المكاتب العربية و تصريحات بعض الجزائريين،و من أبرز الكتاب العسكريين لهذه الفترة:

- شارل فيرو ch.Feraud-

اسماعيل أوربانI.urbain-

-أندريان بربروجر A.Berbugger

-راينو دو بيليسيRaynaud de péllissier

جانتي دوبوسي genty de Bussy-

كلوزال Clauzel-

بارون فيالارBaron vialar-

-آرنو .....و غيرهمA.Arnaud-

و تم نشر أعمال هؤلاء في النشريات الرسمية الصادر بالجزائر خلال ه خلال هذه الفترة و على رأسها:

-المؤسسات الفرنسية بإفريقيا الشمالية

Tableau De La situation des établissement Française en Afrique du nord

-لوحة استكشاف الجزائرExploration de l'Algérie-

2.1.كتابات الأكاديميين الفرنسيين-1880-1962:

ظهـرت خـلال هـذه الفتـرة مجموعـة مـن الأسـاتذة و المختصـين الجـامعيين الاكـاديميين الفرنسـيين الـذين اهتمـوا بكتابـة تـاريخ الجزائر،اشـتغل أغلـبهم بجامعـة الجزائـر و المعاهـد التابعـة لهـا، و تلقـوا كـل الـدعم و التشـجيع مـن المؤسسـات العلميـة و البحثيـة التي دشـنتها فرنسـا بـالجزائر لخدمـة مآربهـا الاسـتعمارية، على رأسـها جامعـة الجزائـر 1909،معهـد الدراسـات الشـرقية 1933، و معهـد الأبحـاث الصـحراوية 1940،إضـافة إلى الجمعيـات التاريخيبـة و الأثريـة التي شـجعت الاهتمـام بالبحـث في تـاريخ الجزائـر و آثارها القديمة،نذكر منها على سبيل المثال:

-المجلة الإفريقيةRevue Africaine

-النشرية الأثرية لمقاطعة قسنطينة Bulletin archéologique de la Province de Constantine

-المجموعة الأثرية لمقاطعة وهران Recueil archéologique de la Province d'Oran

-حوليات معهد الدراسات العربية Annales de l'institut des études arabes

و من أبرز أساتذة هذه الفترة نذكر على سبيل المثال:

-ستيفان غزال **S.**Gzell

-غوتيGauthier

-مرسيE.Mercier

-اسكيرG.Esquer

-جورج وليام مارسيG.w.marcais

-شارل أندري جوليانCh.A.julien

2-تقييمها:

لم تكن الكتابات الفرنسية المتعلقة بتاريخ الجزائر الصادرة خلال تلك الفترة نزيهة و موضوعية، لارتباطها بطبيعة الحال بخدمة المشروع الاستعماري الاستيطاني الصليبي بالجزائر،و يتجلى التشويه المتعمد لتاريخ الجزائر من قبل الفرنسيين من خلال تأكيدهم على وجود ارتباط وثيق لماضي الجزائري التاريخي القديم بالعهدين الروماني و الفرنسي اللذين حظيا بدراسات مستفيضة ،بينما تم اهمال بطريقة متعمدة العهد العثماني في الجزائر ، رغم اتساع مجاله الزماني و المقدر بأكثر من ثلاثة قرون و تشعب أحداثه التاريخية و غيرها من التطورات التي عرفتها المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة إلا أن دراستهم جاءت جد سطحية و مزيفة للحقائق التاريخية حول الوجود العثماني بالجزائر ،حيث ركزوا فيه على الثورات و الفتن الداخلية و الاغتيالات و الانقلابات و عدم الاستقرار الأمني للبلاد و الطعن في نظم الاتراك و الحط من شأنهم و سمعتهم و محو أثارهم بالجزائر،و هدفوا من وراء هذا التزييف و الطمس التاريخي إلى تبرير الغزو الفرنسي للجزائر و التأكيد على ضرورته الحتمية لإنقاذ الجزائريين من هذه الظروف المأساوية على حد تعبيرهم.

و لم يسلم تاريخنا الوطني المعاصر -خلال الحقبة الاستعمارية- أيضا من التشويه من خلال نفيهم -الأقلام الفرنسية الاستعمارية-لوجود أمة جزائرية،و معاداتهم للغة العربية و الدين الإسلامي باعتبارهما مكونين أساسيين للهوية الوطنية،و تأكيدهم على عدم انسجام المجتمع الجزائري لكونه خليطا من العرب و البربر،و تعمدوا أيضا في تحليلاتهم افراغ المقاومات الشعبية المسلحة من محتواها الوطني ، بحيث لا يرجعون دوافعها الحقيقية إلى الروح الوطنية و رفض الاحتلال بل إلى ظروف الجزائريين الاجتماعية و الاقتصادية المتأزمة و التعصب الديني،و دور الخارج في تحريضهم على الفرنسيين.

كما يلاحظ على هاته الكتابات أنها اعتمدت بصفة كلية على المصادر الغربية و اهملت بطريقة متعمدة المصادر المحلية العربية عامة و العثمانية خاصة لاسيما المخطوطات العربية و الوثائق الأرشيفية العثمانية و التقارير التي كتبها جزائريون

معاصـرون للأحـداث مـن شـأنها تعكـس الحقـائق التاريخيـة بموضـوعية عـن أوضـاع الجزائر خلال العهدين الكولونيالي و العثماني.

رغـم مـا تـوفر عليـه الأسـاتذة الفرنسـيين الأكـاديميين مـن إمكانيـات و ظـروف ملائمـة لكتابـة تـاريخ الجزائـر بكـل موضـوعية و نزاهـة على رأسـها المـادة التاريخيـة و الـدعم الرسـمي الـذي تلقـوه و تخصصـهم العلمي و تكـوينهم المنهجي في الكتابـة التاريخيـة إلا أن أبحاثهم ظلت مقتضبة التحليل و متحيزة لصالح المحتل الفرنسي.

مـع العلـم أن بعـض الكتـاب و المـؤرخين الفرنسـيين بـدأوا يغيـرون تـدريجيا نظـرتهم إلى تـاريخ الجزائـر و مـن ثمـة يتحـررون مـن توجهـات المدرسـة التاريخيـة الاسـتعمارية و يتجهـون إلـى الكتابـة الموضـوعية للتـاريخ وفـق مـنهج علمي تحليلـي نقـدي و اسـتنادا للمـادة التاريخيـة المتـوفرة و بجميـع أصـنافها ،و قـد ظهـر هـذا التوجـه الجديـد بعـد نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة،و نجـد مـن أبـرز الكتـاب المحسـوبين على هـذا التوجـه: شـارل أنـدري جوليـان الـذي غيـر مـن أحكامـه المتطرفـة إزاء تـاريخ الجزائـر مـن خـلال كتابـه الصـادر سـنة 1952، تحـت عنـوان-افريقيـا الشـمالية تسـير L'Afrique du nord en Marche ،و الـذي أعـاد النظـر مـن خلالـه في أحكامـه غيـر النزيهـة حـول تـاريخ الجزائـر التي جـاءت في كتابـه الصـادر سـنة 1931 و الموسـوم بـ:تاريخ شـمال افريقيـة Histoire de l'Afrique du nord،إضـافة إلى كتـاب أخـرين سـاروا في الاتجـاه التحـرري غيـر المنحـاز و العلمي في اهتمامـاتهم بتـدوين تـاريخ الجزائـر يتقـدمهم شـارل روبيـر آجـرون،و أندري نوشي.